

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الانتقام - العدل في التعدد

الشيخ/ خالد بن عثمان الس بت

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلا زال حديثنا عن المشكلات الزوجية، وقد قلنا في الدرس الماضي: إن من المشكلات الزوجية أن يتلقى أحد الزوجين التوجيه من أطراف خارجية، البنت من أمها ومن أخواتها يحرضنها على هذا الزوج، وكذلك هو ربما يتلقى من أخواته ومن أمه فيلقنونه ويحركون قلبه ومشاعره تجاه هذه المرأة، فيتصرف بعض التصرفات التي لا تليق، وهؤلاء قد لا يحسبون العوائق، فينبغي للإنسان أن لا يدخل هذه الأطراف في مثل هذه المشكلات، ويتفق مع امرأته ابتداءً أن لا تذكر شيئاً لأهلها مما يجري بينه وبينها، وكذلك هو لا يذكر شيئاً لأهله فيما يدور بينه وبين امرأته، وهذا هو الرجل العاقل، وهذه هي المرأة العاقلة.

ومن ذلك أيضاً أن بعض الناس من الأزواج ومن الزوجات يحمل كل واحد منها الطرف الآخر التبعات والمسؤوليات الناتجة من تصرف أطراف آخرين، فمثلاً: هذه المرأة تزوجت برجل، وأخوها قد تزوج أخت هذا الزوج، فهذا أخذ أخت هذا، وفلان أخذ أخته، فطلقت أخته من قبل أخي زوجته، ف يأتي إلى هذه المسكينة فيقول لها: قومي فالحق بأهلك، والله لا تقر لك عين في بيتي وأختي تبكي قد طلقها أخوك، فتقول له: أنا ما ذنبي؟ أنا لم أعلم بمشكلتهم، وليس لي علاقة بالموضوع!!

وهذا يقع للأسف، فأهلهما يسيئون إليه، وتقع خصومة بينه وبين أحدٍ من إخوانها، فيثور على هذه المسكينة، ويتشفى منها باعتبار أنها فرد من أفراد هذه الأسرة، وهذا حرام لا يجوز، وهذا ظلم، والله يقول: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾** [٣٨] سورة المدثر، فلا يحمل أحد تبعات تصرف الطرف الآخر.

ومن ذلك أيضاً: الزواج من الثانية، والزواج من الثانية طيب ومطلوب، وهو الأصل، والله -عز وجل- يقول: **﴿فَإِنْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَتَّنِي وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَا تَعْدُلُوْا فَوَاحِدَةً﴾** [٣] سورة النساء، فالأصل أن يعدد الإنسان، فالمرأة يصيبها النفاس والمرض والحيض والتعب وغير ذلك مما يعتري المرأة عادة، فالرجل يحتاج إلى امرأة أخرى ثانية وثالثة، وهذا لا غضاضة فيه، وخير هذه الأمة أكثرها نساء - صلى الله عليه وسلم -، لكن المشكلة حينما يتزوج الثانية من يكون ضعيفاً، لا يصلح أن يتزوج الثانية، لا يصلح أن يدير امرأة واحدة فضلاً على أن يأتي بامرأة أخرى فتلعب به هذه المرأة، أو يلعب به هؤلاء النساء لعب الصبيان بالكرة، ولربما كانت شخصية إحدى النساء قوية فتسطير عليه، ولا يستطيع أن يذهب إلى الأخرى، ولربما بكى عندها طويلاً وأبكى، بيت لها مشاعره وآلامه وحرسته وأنه يحب لقاءها والجلوس معها، ولربما كتب لها بعض الأشعار -إن كان شاعراً- وكتب لها بعض العبارات الرومانسية -كما يقال- التي يعبر بها عن محبتها وعن تقديره لها؛ ولكنه مغلوب على أمره من قبل تلك المرأة المسيطرة عليه، فهذا لماذا يتزوج؟ بعض النساء تقول: منذ أن تزوجته منذ شهور طويلة قريباً من سنة كاملة لم يبيت عندي ليلة

واحدة، والسبب هو هذه المرأة الأولى أنها قوية ومسطرة عليه، فهذا لا يصلح أن يتزوج، وإنما الذي يتزوج الثانية والثالثة والرابعة هو الشخص الذي يكون لديه القدرة على العدل، أما أن يتزوج ثم يظلم فهذا لا يجوز، وبعضهم يتزوج الثانية ويحلف في حق الأولى، وهذا هو الغالب فيشتط ويندفع ويتصرف بتصرفات لا تليق. بعض النساء تقول: يلقم امرأته الجديدة أمامي، فهذا يثير مشاعر المرأة، لماذا هذه التصرفات؟ يقول: لا بأس، أنت الكبيرة والعاقلة وتحملني، وهذه امرأة جديدة، لابد أن نؤانسها ونذهب الوحشة عنها...الخ.

تؤكلها أمام امرأتك الأولى؟! هذا لا يجوز، هذا حرام.

وهكذا يميل معها في كل شيء ويظلم، وربما فتح لهذه الجديدة بيتاً جديداً، والأولى مع أمها وأخواته، هي التي تعمل وهي التي تطبخ، وهي التي تقوم بالصغير والكبير، وتستقبل الضيوف، إلى غير ذلك، وهذا ظلم لا يجوز، بل يجب العدل بين هؤلاء الأزواج.

فإذا كان الإنسان يعرف من نفسه القدرة على العدل فيها ونعمت، وإذا كان يعرف من نفسه العجز والضعف وكل امرأة تنهشه من ناحية وتسطير وتجذبها فهذا لا يصح بحال من الأحوال.

الذي يكون ساماً لما تقوله المرأة، أو يكون قوalaً عند النساء، إذا جلس عند هذه بدأ يذكر مآثر تلك، وقلت لها وقالت لي، وأعطيتها وأعطيتني وكذا، وهي تفعل أفضل منك...الخ، فهذا يؤجج النار في نفسها.

وكذلك إذا كان ساماً يذهب إلى هذه فيستمع منها: انظر ماذا قالت؟ وانظر أولادها ماذا صنعوا؟...الخ.

المفروض أنَّ من تزوج امرأة ثانية أن يقطع لسانه إذا دخل على إداهن، فلا يذكر شيئاً أبداً عن المرأة الثانية، إذا دخل على الأولى كأنه ليس في الدنيا إلا هذه المرأة، وإذا دخل على الثانية كأنه ليس في الدنيا سواها، ولا يتصرف بصرفات استفزازية، يمدح هذه لتلك ويقول: أريد أن أثير الحماس والمنافسة.

لا داعي لذلك؛ فالمنافسة موجودة، أنت تحتاج أن تهدئها فقط، لا تحتاج أن تزيد في اشتعال هذه النار في نفوس هؤلاء الناس، فكثير من الناس يتزوج لكنه يسبب مشاكل لا حصر لها.

ومن ذلك أيضاً الذنوب والمعاصي، فهي تحرقنا، وهي التي تفسد ما بيننا وبين الناس، فإذا أصلح العبد ما بينه وبين الله -عز وجل- أصلح الله ما بينه وبين الخلق، وكثير من مشاكل الناس إنما هي بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

ومن التوجيهات التي أحب أن أوجهها إلى الإخوة الذين ينونون الزواج:

أنك أيها الأخ إذا أردت أن تتزوج فاختر امرأة من بيئتك، فأفضل ما تكون رقعة الثوب أن تكون منه، لا تكون نشازاً، لأن هذه المرأة التي تأتي بها وأنت لك أهل ولك أم ولك أخوات ولك أقارب ولك جماعة قد تكون هذه المرأة نشازاً من بينهم، فلربما حقروها ولربما تنقصوها، ولربما لم يتأقلموا مع عاداتها وطريقتها في الحياة، ولربما احتقروا أولادها؛ بسبب عصبية عندهم أو نحو ذلك، فتكون المرأة محترقة، ومن جاءت به من الأولاد يُحقرن، فلا داعي إذن أن تجعل نفسك في هذه الزاوية الضيقة.

فالله -عز وجل- وسع عليك فتزوج امرأة من بيئتك تفهمها وتفهمك، تتعايش معها وتنتعاش معك بشيء مألف لكم في السابق، وهو أنكم تحبون حياة متشابهة من جميع النواحي.

وهنا لا أحتاج أن أشرح لكم هذه القضية طويلاً، فقد وجدت مثالاً جميلاً كتبه أحد الأدباء، وهو الشيخ على الطنطاوي -رحمه الله- كتب كتابة جميلة وهي من أجمل ما قرأت في هذا الموضوع حيث يصف بها حياته الزوجية وسبب النجاح، وقد حذفت بعض الفقرات وسأقرأ عامتها، يقول -رحمه الله-: إنه سعيد في حياته وإنه مستريح، ثم يذكر سبب هذه السعادة لماذا سعد؟

يقول: "وقد أعانتني على هذه السعادة أمور يقدر عليها كل راغب في الزواج، طالب للسعادة فيه، فلينتفع بتجاربي من لم يجرِ مثلها": فالعامل من وعظ بغيرة والشقي من وعظ نفسه.

يقول: "وليس مع وصف الطريق من سالكه من لم يسلك بعد هذا الطريق"، وهذا يستفيد منه من لم يكن قد تزوج، وكذلك إذا أردنا أن نزوج أحداً من أبنائنا، أو أحداً من إخواننا، أو أحداً من معارفنا، فنصلحه بهذه النصائح.

يقول: "أولها: أني لم أخطب إلى قوم لا أعرفهم، ولم أتزوج من ناس لا صلة بيني وبينهم، فينكشف لي بالمخالطة خلاف ما سمعت عنهم، وأعرف من سوء دخيلتهم ما كان يסתרه حسن ظاهرهم"، يقول: لم أتزوج من أناس لا أعرفهم، ثم مع الأيام اكتشف أشياء ما كانت ظاهرة لي.

يقول: "وإنما تزوجت من أقرباء عرفتهم وعرفوني، واطلعت على حياتهم في بيتهم، واطلعوا على حياتي في بيتي، إذ رُبَّ رجل يشهد له الناس بأنه أفقه الناس، وأنه زينة المجالس، ونزهة المجتمع، وهو في بيته أثقل الثقلاء، ورُبَّ سمح هو في أهله سمج، وكريم هو في أسرته بخيل، يفتر الناس بحلوة مظهره فيtrigger عن مرارة مخبره"، ويقول: "تزوجت بنتاً أبوها ابن عم أبي": ثم ذكر أن والدتها يشتغل في نفس المهنة أو في نفس العمل، فأبواها قاضٍ، وأبواه من القضاة.

يقول: "والثاني: أني اخترتها من طبقة مثل طبقتنا، فأبواها كان مع أبي في المحكمة" إلى أن قال: "وأسلوب معيشته قريب من أسلوب معيشتنا، وهذا هو الركن الوثيق في صرح السعادة الزوجية، ومن أجله شرط فقهاء الحنيفة الكفاءة بين الزوجين".

يقول: "والثالث: أني انتقيتها متعلمة تعليماً عادياً، شيئاً تستطيع به أن تقرأ وتكتب، وتمتاز عن العائميات الجاهلات، وقد استطاعت الآن بعد ثلاثة عشر عاماً في صحتي أن تكون على درجة من الفهم والإدراك وتدوّق ما تقرأ من الكتب والمجلات، لا تبلغها المعلمات، وأنا أعرفهن، وكنت إلى ما قبل سنتين ألقى دروساً في مدارس البنات على طلبات هنّ على أبواب البكالوريا، فلا أجدهن أفهم منها، وإن كن أحفظ بمسائل العلوم، يحفظن منها ما لم تسمع هي باسمه".

إلى أن قال: "والرابع: أني لم أبتغِ الجمال وأجعله هو الشرط اللازم الكافي كما يقول علماء الرياضيات، لعلمي أن الجمال ظل زائل، فقد لا يذهب جمال الجميلة ولكن يذهب شعورك به -لأنك الفتى- وانتباهاه إليه، لذلك نرى من الأزواج من يترك امرأته الحسنة، ويلحق من لسن على حظ من الجمال، ومن هنا صحت في شريعة إبليس قاعدة الفرزدق وهو من كبار أئمة الفسوق، حين قال لزوجته النوار في القصة المشهورة: ما أطيبك حراماً وأبغضك حلالاً".

"والخامس: أن صلتني بأهل المرأة لم يجاوز إلى الآن بعد ثمن قرن من الزمان الصلة الرسمية، الود والاحترام المتبادل، وزيارة الغب": يعني الزيارات التي لا إطالة فيها ولا كثرة، وإنما زيارات قليلة يشتاقون إليها، فلا يطيل عليهم في الزيارة بحيث يملونه ويكون تقليلاً بالجلوس معهم ويشغلهم عن أعمالهم.

يقول: "ولم أجد من أهلها ما يجد الأزواج من الأحماء من التدخل في شئونهم، وفرض الرأي عليهم، ولقد كنا نرضى ونسخط كما يرضى كل زوجين ويسلطان، فما تدخل أحد منهم يوماً في رضانا ولا سلطاناً، وهذه قضية مهمة أشرت إليها في بعض الدروس السابقة.

يقول: "ولقد نظرت إلى اليوم في أكثر من عشرين ألف قضية خلاف زوجي، وصارت لي خبرة أستطيع أن أؤكد القول معها بأنه لو ترك الزوجان المختلفان، ولم يدخل بينهما أحد من الأهل ولا من أولاد الحال لانتهت بالمصالحة ثلاثة أرباع قضايا الزواج"، يعني أن المشكلة في التدخلات بحيث تصير القضية صراعاً ونطاحاً بين فريق وفريق.

"والسادس: أتنا لم نجعل بداية أيامنا عسلاً كما يصنع أكثر الأزواج، ثم يكون باقي العمر حنظلاً مراً وسماً زعافاً، بل أريتها من أول يوم أسوأ ما عندي، حتى إذا قبلت مضطراً به، وصبرت محتسبة عليه عدت أريها من حسن خلقي، فصرنا كلما زادت حياتنا الزوجية يوماً زادت سعادتنا قيراطاً"، يعني أنه يقسط لها محاسنه بالتدرج فتزداد مع الأيام حباً له وإجلالاً وإكباراً، إذ كل يوم تكتشف له سجية، لا كما يفعل بعض الأزواج من إظهار المحسنات جملة واحدة في البداية في ما يسمونه بأسبوع العسل وشهر العسل، حيث يأتي فيعطيها أفضل ما عنده من الابتسamas ومن الدمامنة ومن الكرم والجود، ثم تظهر بعد ذلك المشاكل والبلاء، فهذا لا يليق، لذا أقول: لا تعطها أحسن ما عندك في أول أسبوع ثم تقسط عليها المساوى في باقي العمر.

وأقول: هنئاً لمن لم يتزوج بعد حتى استفاد مثل هذا الكلام، وكيف يكون سعيداً في حياته الزوجية.

"والسابع: أنها لم تدخل جهازاً، هناك عندهم من العادات في الشام أن المرأة تأتي بأشياء للبيت ثم يحصل عليها شجار عادة وتتحرك نفس المرأة عليها إذا استعملها الزوج أو أخذها أو نحو ذلك... إلى أن قال:

"والثامن: أني تركت ما لقىصر لقىصر، فلم أدخل في شئونها من ترتيب الدار وتربيبة الأولاد، وتركـتْ هي لي ما هو لي من الإشراف والتوجيه، وكثيراً ما يكون سبب الخلاف لبس المرأة عمامة الزوج وأخذها مكانه، أو لبسه هو صدار المرأة ومشاركتها الرأي في طريقة كنس الدار، وأسلوب تقطيع البازنجان، ونمط تفصيل الثوب"، فهذه أمور لا شأن للزوج بها.

"والحادي عشر: أني لا أكتتمها أمراً ولا تكتمني، ولا أكذب عليها ولا تكذبني، أخبرها بحقيقة وضع المالي"، والحقيقة أن هذه قضية قد تتحفظ عليها؛ لأن المرأة إن رأته كثيراً توسع في ذلك، وإن رأته قليلاً سقط الرجل من عينها، فالأخسأن أنه لا يخبرها، والعرب كانوا يرون أنه ليس من المروءة أن يخبر الرجل بقدر ما عنده من الدخل.

يقول: "وأخذها إلى كل مكان أذهب إليه أو أخبرها به، وتخبرني بكل مكان تذهب هي إليه، وتعود أولادنا الصدق والصراحة، واستنكار الكذب والاشمئزاز منه، ولست والله أطلب من الإخلاص والعقل والتدبر أكثر مما أجده عندها، فهي من النساء الشرقيات اللائي يعيشن للبيت لا لأفسهن، للرجل والأولاد، تجوع لتأكل

نحن، وتسهر لننام، وتتعب لنسريح، وتتغنى لنبقى، هي أول أهل الدار قياماً، وآخرهم مناماً، لا تنثني تنظف وتخيط وتسعى وتذبر، همها إراحتى وإسعادى، إن كنت أكتب أو كنت نائماً أسكنت الأولاد، وسكنت الدار، وأبعدت عنى كل منغص أو مزعج".

يقول: "تحب من أحب، وتعادي من أعادى، وإن كان حرص النساء على إرضاء الناس فقد كان حرصها على إرضائي، وإن كان مُناهن حلية أو كسوة فإن أكبر منها أن تكون لنا دار نملكها نستغنى بها عن بيوت القراء".

ويقول: "تحب أهلى ولا تفتأ تنقل إلى كل خير عنهم، إن قصرت في بر أحد منهم دفعتنى، وإن نسيت ذكرتني، حتى إني لأشتهى يوماً أن يكون بينها وبين أخي خلاف كالذي يكون في بيت الناس، أتسلى به، فلا أجد إلا الود والحب، والإخلاص من الثنين، والوفاء من الجانبين!"

يقول: "إنها النموذج الكامل للمرأة الشرقية، التي لا تعرف في دنياها إلا زوجها وبيتها، والتي يزهد بعض الشباب فيها، فيذهبون إلى أوربا أو أمريكا ليجيئوا بالعلم فلا يجيئون إلا بورقة في اليد، وامرأة تحت الإبط، امرأة يحملونها يقطعنون بها نصف محيط الأرض أو ثلثه أو ربعه، ثم لا يكون لها من الجمال، ولا من الشرف ولا من الإخلاص ما يجعلها تصلح خادمة للمرأة الشرقية، ولكنه فساد الأذواق وقد العقول، واستشعار الصغار وتقليل الضعف للقوى، يحسب أحدهم أنه إن تزوج امرأة من أمريكا أو أي امرأة عاملة في شباك السينما، أو في مكتب الفندق فقد صاهر طرمان، وملك ناطحات السحاب، وصارت له القبلة الذرية، ونقش اسمه على تمثال الحرية!".

يقول: "إن نساعنا خير نساء الأرض، وأوفاهن لزوج، وأحنانهن على ولد، وأشرفهن نفسها، وأطهرهن ذيلاً وأكثرن طاعة وامتثالاً وقبولاً لكل نصحٍ نافعٍ وتوجيه سديد، وإنني ما ذكرت بعض الحق من مزايا زوجتي إلا لأضرب المثل من نفسي على السعادة التي يلقاها زوج المرأة العربية - وكدت أن أقول الشامية المسلمة - لعل الله يلهم أحداً من العزاب القراء العزم على الزواج فيكون الله قد هدى بي بعد أن هداني"، هذه تجربة جميلة جداً، والإنسان يستفيد من هؤلاء الذين لهم خبرة فينتفع، وهذا خيرٌ له من أن يكون مجرباً على نفسه.

هذا، وأسأل الله أن يهدينَا وإياكم لأحسن الأعمال والأخلاق، وأن يوفقنا وإياكم أعظم التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.